نظريات الاقتصاد عند البيروني

النظريات الاقتصادية هي حديثة في حد ذاتها ، ولكن كلما أمعنا النظر بالوثائق العربية القديمة رأينا أن السلف الصالح قد تطرق إلى كل ناحية من المعارف ، ولو اننا تابعنا ذلك المسير لكنا اليوم في مقدمة الامم حضارة ومدنية .

البيروني هو أحد العلماء المسلمين الذي كان له الأثر الأكبر في جمع العلوم الاسلامية فهو أحد ثقات النقادين والبحاثين في العلوم التاريخية والجغرافية والطبيعية والرياضية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في عام ٣٦٢ هـ . أي ٩٧٢ م . في خوارزم وعاش ردحاً طويلاً من الزمن في بلاط ملوك غزنة السلطان مسعود وخليفته السلطان مودود ؛ أما الكتب التي ألفها فقد أدرجت بفهرست بروكلمن ودائرة المعارف الاسلامية الالمانية ، وكتاب الصيدنة الذي يبحث عن العقاقير ومنفعتها فقد نشره طبيب العيون في القاهرة وأحد البحاثين عن تاريخ الطب العربي الدكتور ماكس مايرهوف ، ونشر ر . رامزي رايت R. Ramsay Wright الانكليزي كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ؛ أما مخطوطة البيروني القيمة التي تبحث عن الاحجار (الجماهر في معرفة الجواهر) والتي اكتشفت فيها النظرية الاقتصادية فاني اعرف لها ثلاث نسخ :

١ : نسخة محفوظة في مكتبة الاسكوريال في أسبانيا تحت عدد ٣٢٢ [1]

(١) انظر مقال شتاينشنايدر في مجلة الشرق الألمانية ١٨٩٥ عدد ٤٩ ص٢٥٣
M. Steinschneider, ZDMG. 49, 1895, p.253.

وقد كنت اطلعت على هـذه النسخة في مكتبة تاريخ العلوم الطبيعية في برلين فوجدتها مملوءة بالاغلاط .

٢ : نسخة محفوظة في مكتبة السراي في الآستانة كتبت عام ٦٢٦ ﻫ وقد اطلعت على صورة شمسية لهذه النسخة في جامعة بون ، ويقول الاستاذ كرنكو في مجلة ثقافة الاسلام الهندية التي تصدر باللغة الانكليزية في حيدر آباد (عام ١٩٣٢ جزء ٥ ، ص ٥٣٠ وما تابعه) [١] ان هناك نسختين في الاستانة في حين ان الاستاذ هلمون ربتو المقيم في الاستانة لتدقيق المخطوطات العربية في خزائن المكتبات التركية يعتقد أن هناك نسخة واحدة .

٣ : نسخة محفوظة في مكتبة رشيد أفندي في مدينة قيصرى في تركية ، ومكتبة بروسيا الحكومية تملك صورة شمسية لهذه النسخة التي كانت دليلي في هذا الموضوع .

وقد أتيح لي أن أدرس هذه المخطوطة دراسة متقنة اطلعت فيها على جميع مآخذ البيروني ، وقد عثرت هنا على نظرية اقتصادية لها تماس قوي مع النظريات الاقتصادية الحديثة أقرت بقيمتها كلية الفلسفة في جامعة بون [٢] .

وقد كنت نوهت عن هذه المقالة في مجلة الاعتدال (النجف نيسان ١٩٣٦ ص ٥٦١) . واني الآن سوف أبين ما هذه النظرية ، ولكن قبل الخوض في الموضوع أود أن آتي بنظرة تاريخية سطحية أبين فيها الذين سبقوا البيروني في هذا المضار .

في العهد اليوناني تطرق أفلاطون وأرسطوطاليس الى البحث في حاجة الانسان الى التعاون ، حتى ان أرسطوطاليس أشار بأن قيمة الدرهم ليست من ذاته بل بحسب الاعتبار [٣] . وهناك فيلسوف يوناني يدعى بريزون Bryson

(١) Islamic Cultur VI, 1932 p. 530 ff.

(٢) راجع أطروحتي الدكتورية عن منابع كتاب الاحجار المقدمه لجامعة بون عام ١٩٣٥ . M. J. Haschmi, Die Quellen des Steinbuches des Beruni (Inaugural - Dissertation), Bonn 1935. P. 44,

(٣) راجع رسالة أوغارسالين (استاذ الاقتصاد في بازل،سويسرا) عن تاريخ ـ

الذي بحث أيضاً بفلسفة الاقتصاد ولكننا لا نعلم الزمن الذي عاش فيه . ويزعم الاستاذ مارتين بلسنر الذي دقق مؤلف هذا العالم مع ترجمته العربية [١] انه عاش على التقريب بين مائة سنة قبل الميلاد وبين مائة سنة بعد الميلاد وهناك نظرية اقتصادية للدمشقي نشرها الاستاذ هلموث ريتو في العدد الخامس من مجلة الاسلام الالمانية [٢] ، لا نعلم أيضاً الزمن الذي عاش فيه هذا العالم الدمشقي ولكنه ما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر .

فاذاً ان أهمية نظرية البيروني عظيمة لاننا نرى هنا تحديد الزمن الذي نشأت فيه هذه النظرية ، وقد سبق الفارابي البيروني في فكرة تشكيل الجماعات في كتابه القيم « المدينة الفاضلة » أما ابن سينا المعاصر للبيروني فقد ألف كتاباً في السياسة [٣] تكلم فيه عن حاجة الانسان الى التعاون ولكنه لم يذكر وجوب اتخاذ واحد قياسي للمعاملة في المبادلات ، فللمرة الاولى نجد تحديد النظرية الاقتصادية في الادب العربي عند البيروني وذلك في مقدمته القيمة في كتاب الجماهر في معرفة الجواهر [٤] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ علم الاقتصاد السياسي في دائرة معارف الحقوق وعلم الحكومة برلين ١٩٢٩ ص ٦

Edgar Salin, Geschichte der volkswirtschaftslehre(Enzyklopaedie der Rechts - und Staatswissenschaft), Berlin 1929, P. 6

(١) **Martin plessner, Der Oikonomikos des Neupythagorees Bryson, Heidelberg 1928, P. 148.**

(٢) **Helmuth Ritter, Ein arabisches Handbuch der Handelswissenschaft, Der Islam, VII, 5.**

(٣) راجع مجلة المشرق العدد التاسع عام ١٩٠٦

(٤) رغماً من أن البيروني اعتمد في تأليفه هذا الكتاب على الكندي حيث يقول : « ولم يقع في هذا الفن اعني فن الجواهر غير كتاب أبي يوسف بن اسحق الكندي في الجواهر والاشباه ، قد اخترع فيه عذرته وأظهر دورته كاختراعه البدائع في كل ما وصلت اليه يده من سائر الفنون ، فهو امام المجتهدين واسوة الباقين » ليس عندنا أي دليل على ما اقتبسه من ذلك العالم في تكوين نظريته الاقتصادية ، وكذلك الامر بمعاصر الكندي الجاحظ الذي استقى البيروني منه بعض الاخبار ـ

ابتدأ البيروني في مقدمته بعد حمد الله بالكلام عن غاية الخليقة ، فتكلم عن النبات والحيوان ، ثم عن الانسان كمخلوق اجتماعي ، ويبين بعد ذلك ضرورة اتخاذ قيمة ثابتة لتسهيل تبادل المصالح ، ثم يجلب هذا العالم نظر دقتنا الى الخطر الناشئ عن الغلو في تشريف الذهب والفضة فيبرهن لنا بأن لا قيمة مطلقة بل قيمتها قيمة نسبية إضافية ، وينتقل بعد ذلك إلى أبحاث الاخلاق الاجتماعية التي تجلب السعادة لبني البشر .

تشتق فكرة البيروني في الاقتصاد من الحاجة ، وهي حاجة المخلوقات إلى المعيشة ، فجعل الله النبات مكتفياً بالقليل من الغذاء الذي لا ينهضم بسرعة ، وثابتاً مكانه يأتيه رزقه من كل مكان فيجذبه بعروق دقاق ؛ أما الحيوان فكان الانهضام فيه سريعاً ، منفصلاً عن منبته محتاجاً إلى القضم والخضم فجعل متنقلاً بآلات الحركة في أكناف الارض لطلب القوت ، فأنعم عليه وأعطي خمس حواس للشعور بما حوله مما يلائمه ويغايره : من بصر يدرك به المرغوب فيه من بعيد فيسرع إلى اقتنائه ، والمرهوب ليهرب منه ويستعد لاجتنابه واتقائه ، ومن سمع يدرك به المذكور من حيث لا يدركه البصر ، ومن شم يدله على خواص الاشياء ، وذوق يظهر له الموافق من الغذاء وغير الموافق ، ولمس يعرف به الحر والقر والرطب واليابس والصلب واللدن والخشن واللين .

فالبصر محسوسه النور الحامل في الهواء ألوان الأجسام خاصة ، وإن حمل أيضاً غيرها من الاشكال والهيئات ، والسمع محسوسه الاصوات والهواء يحملها اليه ، والشم محسوسه الروائح ، والهواء يوصل حواملها الى الخياشيم إذا انفصلت

ـ عن الجواهر ، أما ارتباط البيروني باخوان الصفاء فلا يزال غامضاً ، ولم أعثر الا على التشابه بين فكرة التطور في الطبيعة عند اخوان الصفاء وعند البيروني ، وقد كنت بحثت في هذا الموضوع في مجلة المجمع العلمي العربي من عدد ايلول ١٩٣٢ ، راجع اطروحتي (الدكتوراه) وملحق تاريخ الادب العربي لبروكلمن الحديث ص ٢٨١
C. Brockelmann, Geschichte der arab. Literatur, Supplement, Leiden 1936., I. P. 381.

من المشموم كانفصال البخار من الماء باختلاط أجزائه المنتشرة في الهواء ، والذوق محسوسه الطعام والرطوبة تحملها وتوصلها إلى الذائق وتولجها في خلله ؛ أما حاسة اللمس فانها عمت جميع البدن في أعضائه وفي آلات سائر حواسه ، وأولى ما يلاقي الكيفيات ظاهر البدن ، ولهذا كان الجلد يحس اللمس أولى واليه أسبق ، ثم ما وراءه أول فأول بحسب اللين واللطف ، فيزول به حس اللمس عن العظام .

إن المشاعر وان جعلت طلائع الحيوان للاقتناء والابقاء فان النوع الانساني قد فضل على جملة الحيوان بما شرف به من قوة العقل ، ورشح للخلافة في الارض على التعمير وإقامة السياسة فيها ، ولهذا دانت له طوعاً وكرهاً ؛ ولولا هذا الانعام على الانسان لما قاوم أدونها ، وقد أفرد من حواس الانسان اثنتان هما السمع والبصر فجعلتا له مراقي من المحسوسات الى المعقولات ؛ ويستدل البيروني هنا على خطورة السمع والبصر بآية قرآنية : « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » ، وكذلك ببيتين من أشعار العرب كقول أعشى بن ربيعة :

كأن فؤادي بين جنبيّ عالم ... بما أبصرت عيني وما سمعت اذني

وقول جميل بن معمر :

إذا كنا بمنزلة لهو ... يخاف السمع فيه والعيونا

وبعد أن تكلم البيروني عن الحواس والمشاعر أتى على خطورة تكوين الجماعات إذ يقول :

الاستيناس يقع بالتجانس حتى قيل ان الشكل الى الشكل ينزع ، والطير مع الافه تقع . فالأخرس يسكن إلى أخرس ، لأنه يفهم لغته فيما هو بين قوم لا يفهمون عنه شيئاً ، ولذا أشار البيروني الى تلك الآية الكريمة في تشكيل الجماعات : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » . وهكذا يعد البيروني الزواج استدلالاً بالقرآن كضرورة من

ضرورات الاجتماع ، إذ هو يفضي الى سكنى القرى والمدن وبسبب التكاثر للتعاون في الغايات ، أما سبب تعدد الحرف والصنائع فيعللها بما يلي :

الانسان في جبلته مركب البدن من أمشاج متضادة لا تجتمع الا بقهر قاهر ، والنفس في أكثر أحوالها تابعة للمزاج فتتلون لذلك وتختلف اختلافه . ومعلوم أن المقهور دائم النزوع إلى ازالة القهر عنه ، وهذا هو سبب ما يلحق الحيوان من الآفات والاذى الذي يحتاج من داخله إلى المضادات المطيفة به من خارجه ، ثم ان الانسان لعراه في ذاته ، ومسكنته لعدم آلاته مقصود بالبلايا من غيره ، دائم الحاجة الى ما يقيه والاضطرار الى ما يكفيه . وهنا يبدأ البيروني بالكلام عن الحاجة ، ويرى أن حاجات الانسان لا تنقضي طالما هو حي يرزق ، ويستدل على صحة رأيه بهذا المثال :

يموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

أما ضرورة التعاون فقد سبق كثير من العلماء البيروني كامثال افلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا وغيرهم كما ذكرت ذلك سابقا . وان فكرة التعاون عند عالمنا مطابقة كل المطابقة للنظريات القديمة القائلة بأن حاجات الانسان متعددة فلا يمكن الفرد أن يستقل بتداركها بنفسه ولا يفي بها الا نفر ، ولهذا احتاج الانسان الى التمدن . وهناك حكمة إلهية الا وهي اختلاف توزع الناس في الأرض بين الاهواء والهمم كيلا يطبقوا على اختيار واحد هو الافضل فيضيع ما دونه . وهنا يأتي البيروني بحكمة قيمة ورغم مرور العصور نجد ان تلك الحكمة لا تزال حديثة كأن قائلها عالم عصري يعيش بين ظهرانينا ، يقول ذلك الحكيم الخالد : « يؤدي تساوي البشر الى هلاك جملتهم » . فينادي البيروني من تلك العصور الماضية محذراً من دعاة الشيوعية الذين يدعون امكان تساوي البشر ويفهمنا الخطر العظيم من ذلك الخيال الذي حلم به كثيرون .

أما الحرف والصناعات فيجد البيروني أنها نشأت من اختلاف المقاصد

والارادات . فالتعاوض اتخذ البشر بعضهم بعضاً سخريا ، فالتسخير بالجور والاستيجار لا يدوم ولا يستقيم . وانه لكثرة الغايات وتباين اوقاتها واستغناء الواحد أحياناً عما عند الآخر لجأ الناس إلى طلب أثمان عامة بدل الاعواض الخاصة ، فاختاروا لها ما راق منظره وعز وجوده وطال بقاؤه ثم انقاد للتعظيم بالتوحيد وللتصغير بالتجزئة والتبديد وللختم بالتنقيش والتصوير متردداً بين صنوف الهيئات والصور مع ثبات هيولاه ومادته . ولهذا السبب يعتقد البيروني ان الله تعالى لرأفته بخلقه وظاهر عنايته بهم خزن لهم قبل خلقه اياهم جميع الموزونات في أرحام الارضين تحت الرواسي الشامخات للانتفاع بها في الاجتلاب والدفاع ، واليه يرجع قوله عز وجل (وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) ثم قدر الله في الفضة والذهب جميع مصالح الناس حتى تحلى أثمان المطلوبات وهداهم اليهما فاستخرجوهما من معادنهما التي عديا فيها دهوراً ، ووكل الساسة بهما ليحفظوهما من تمويه الخونة أشباههما المغايرة اياهما ابدالا عنها ، وليهذبوهما عن الادناس بالسبك والطبع ، فما من حق مع محق الا وبازائه باطل مع مبطل يروم ترويجه في مكانه . وهذا وأمثاله هو المحوج اولي السياسة ليستحقوا اسم الخلافة في الخلق .

يعرفنا البيروني بالضرر الذي ينجم من الغلو في تقدير الذهب والفضة واختزانهما ، فيأتي بنظرية اقتصادية تلعب اليوم دوراً عظيماً في عالم الاقتصاد فان هناك من يعتبر تلك النظرية ويعدها الاساس الاكبر في هذا الفن ومن يرفضها رفضاً باتاً . وقبل أن نعلم من هو القائم بتلك النظرية الحديثة يجب ان نسمع ما يقوله البيروني :

لما سهل على الناس تكاليف الحياة وتصاريف المعاش بالصفراء والبيضاء ، انطوت الانفذة على جمعهما ومالت القلوب اليهما . . . واشتد الحرص على ادخارهما والاستكثار منهما . وجل محلهما من الشرف والأبهة وضعاً لا طبعاً واصطلاحاً فيما بينهم لا شرعاً ، لانهما حجران لا يشبعان بعد ذاتهما من جوع ولا يرويان من صدى ولا يدفعان بأساً ولا يقيان من أذى . . . فيبرهن

البيروني بذلك انهما خيران بالوضع وسماهما الناس خيراً كالمطلق لاحتوائهما على المناجح في المآرب · وبهذه المناسبة يأتي البيروني بحكاية عن الشعوب الابتدائية:

« أخبر بعض من سافر في البحر أن الريح أفضت بمركبهم الى جزيرة عادلة عن الجادة فأرفئوا عندها ، وانه خرج مع الخارجين اليها ، ودفع الى من رأى حاجته معه ديناراً ، فأخذه وفتشه وشمه وذاقه ، فلما لم يؤثر منه في هذه الحواس أثر نفع ولذة ورده عليه ، اذ لم يستجز دفع ما ينتفع به بما لا نفع له فيه » · ويؤكد البيروني قائلا :

هذا لعمري هو المعاملة الطبيعية التي بها حقيقة نظام العاش من المتمدنين للتعاون · وأما المعاملة الوضعية فعلى الامم فيها بما اتصل بنا خبره من البلدان والممالك هي بالفلزات التي ازدانت في أعين الناس وشغف بها قلوبهم لصرف الله بلطفه اياها اليهم إصلاحاً بينهم لا لأنفسها ·

وهنا تجادلت مع الدكتور كلاوزنك أحد أساتذة علم الاقتصاد في جامعة بون عن هذه النظرية وأخيراً اعترف هذا الاستاذ بعد دراسة الموضوع ملياً بالتشابه الذي بين نظرية البيروني ونظرية اقتصادي حديث يدعى كتاب Knapp وهكذا يدعي كناب أن قيمة الذهب هي ليست من معدنه بل حسب الاعتبار ، أي كما يقول البيروني وضعاً لا طبعاً (١) ·

وأخيراً يعالج البيروني مرضاً معضلاً في عالم الاجتماع لم يبرأ البشر منه رغماً عن مضي العصور العديدة ، وذلك الداء العضال هو كنز الاموال وعدم تركه للتداول ، لأن الحركة هي من ضرورات الحياة ، واذا وقفت تلك الحركة كانت أزمة اقتصادية هائلة · فلقد أنكر البيروني كنز الاموال واستدل بالآيات القرآنية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل

(١) راجع النظرية الحكومية للدرهم لكتاب :
Knapp, Staatl. Theorie des Geldes,
München und Leipzig 1921, p. I. Herbert Doering, Die Geldtheorie seit Knapp [Greifswalder Staatswissenschaftl Abhdlg. Greifswald 1922, p.9).

الله فبشرهم بعذاب أليم » • ويفسر البيروني في سبيل الله فيما ما خلقهما له من انتفاع الناس بترددهما في أيديهم أثمانا لمصالحهم • فبوجودهما كنزا انقطع انتفاع الخلق بهما وخولف أمر الله تعالى ومشيئته فيهما •

ويعتقد البيروني ان الذهب والفضة إذا خرجا من معدنهما صارا كالزروع المحصودة والانعام المذبوحة لا يسوغ غير أكلها واتفاقها ، كذلك هذا المال ليس له بعد الاستنباط غير الطبع عينا وورقا وترديده في الايدي • ولهذا السبب نفسه يرى البيروني حكمة تحريم الاواني الذهبية لأنها تصير غير منتفع بها في الوقت انها جعلت لاجل تسهيل التبادل في المصالح البشرية [1].

فلا عجب بعد هذه المقدمات إذا بدأ البيروني يتكلم عن الفتوة والمروءة قائلا ان المروءة تقصر على الرجل في نفسه وذويه والفتوة تتعدى الى غيره • اذاً ان حل الأزمات الاقتصادية لا يمكن ان يكون ماديا بوجه من الوجوه بل هو معنوي محض • فلو غرس في قلوب الناس معنى تلك المروءة والفتوة لما طاق بشر أن يرى غيره يتقلب من الآلام وهو وحده يتنعم بشتى الخيرات ، ولعلم ان الدرهم الذي بيده والمال الذي جمعه يجب أن يتداول ، يجب أن يمشي ولا يقف في أرضه ، عند ذلك نشاهد سعادة لا تشابها سعادة •

وإذا اتضح لنا ان كثيراً من علماء الاقتصاد في الزمن الحاضر يرون ان الازمة الاقتصادية العالمية الحالية ناشئة عن عدم معرفة التبادل في المنتجات تظهر لنا أهمية نظرية البيروني في عصرنا الحديث ايضاً • ومن يدقق المنتجات العالمية يرى ان هناك مواد كافية من طبيعية وصنعية للقيام بحاجة البشر ، ولا تحتاج الشعوب إلا إلى رجال عقلاء يديرون تبادل المصالح المختلفة • وهنا

(١) يستند البيروني على الشافعي في حكمة تحريم الأواني الذهبية والفضية (راجع كتاب الام ، بولاق ١٣٢١ هـ مختصر مزني ص ٤) • وكما اعتنى فقهاء المسلمين في قضية الاقتصاد الاخلاقي كذلك اعتنى في ذلك رجال الدين المسيحي في اوائل القرون المسيحية • راجع كتاب باول مومبرت عن تاريخ علم الاقتصاد :

Paul Mombert. Geschichte der Nationalökonomie, Jena 1927 p. 64 — 65.

نرى جلياً ان الداء الاجتماعي العضال الذي تئن من تحته الانسانية لا يزال هو هو منذ الاجيال البعيدة .

هكذا يصرخ فينا حكيم مثل البيروني من تلك العصور الماضية منادياً: ان الأزمات مهما تراءت لنا بمظهر مادي هي في الحقيقة أزمة روحية .

الدكتور
محمد يحيى الهاشمي
مدرس اللغة العربية في برلين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com